النباتات الدمشقية.. رموز ودلالات

دمشق أم الأزهار والأشجار والحدائق. وما الغوطة إلا عباءة المجد مزركشة اعتلت أكتاف دمشق.. دمشق التي قال فيها رسولنا العربي: (بارك الله بشامنا)، وفي الذكر الحكيم (رحلة الشتاء والصيف)، وأغدق الله الخير والبركات عليها حتى أضحت ملكة الدنيا وشامة على وجنة الزمن.. الشام مدينة الأنبياء والرسل، مشت، حفظت، كتبت القصيدة، غنّت وأغنت واختارت الصباح وشروق الشمس يقظة، دمشق الحاضرة لاجتماع الفجر مع النجوم استعداداً لزفّ الشمس من المشرق. لا تستطيع الكلمات والبلاغة الإحاطة بدمشق ولا الأديب والشاعر أن يكمل الوصف والثناء ولا الزهر والعطر أن يجاري عطر الشام.

ما أجمل دمشق حين تلبس ثوباً من الزهر سترون أن الشرفات والأسطح تتنفس بالورود وحدائق المنازل الصغيرة والكبيرة تتلون بأجمل الألوان، ولا يطيب عيشاً لمخلوق في الشام إلا والورد جاره. ولن ننسى قول أحد الشعراء:

زر دار ورد إن أردت ورودا
زادوك ودّاً إن رأوك ودودا

فدار الورد الذي يهدي الورود ويعبق بالود والألفة والمحبة هو البيت الدمشقي العريق الذي يزخر بأروع أنواع الورود والأزهار، وعنه قال شاعر دمشق وعاشقها، نزار قباني: «هل تعرفون ما معنى أن يسكن الإنسان في قارورة عطر؟ بيتنا الدمشقي هو تلك القارورة»، فالأزهار والرياحين والنباتات العطرية التي تزرع فيه تجعل جوّه معطراً بروائح فوّاحة. فمن أين نبدأ بالحديث عنها؟

بالفل الذي فاق كل العطور لوناً وشكلاً، إنما هو منحة الله للناس جميعاً، فعنه لن نتخلى والزهر يحيا بحضن الزهر مبتهجاً من صحبة الشمس أو من قبلة النحل، وعاشق الفل ينثر الشعر في مساء التلاقي، فلا تلوموا غريقاً لشذا الفل دائم الاشتياق، وعقد الفل على الضفائر ينساب كنهر يتراءى نوراً وضياءً كمثل بدر أطل.

وما أكثر ما تغنى المتغنون بالنسائم، نسمات المساء أو نسيم الصباح. ولكن ألطف النسائم وأجملها تلك التي تهيج بالروائح الذكية التي تنطبع في الذكريات ولا يطويها النسيان، إلا أنّ النسيم المتشبع بعبق أزهار ملكة الليل (الكولونيا) وشذاها له شأن آخر، فلزهور هذه الشجيرة رائحة ذكية ليس لها مثيل، وعبق أدنى نفحة منه ينعش الأنفاس ويتحول المكان من حولها حتى على بعد عشرات من الأمتار أحياناً إلى روضة فيحاء تعّج بروائح نفاذة أخّاذة متداخلة يصعب وصفها، ويخيّل إلى مستنشقها أنها تجاوزت حواس الشم وتغلغلت منه إلى المخ وسائر نواحي البدن، فهي ملكة الليل من دون منازع، متى ما شعّ شذى أزهارها وتشبّع الجو من حولها. ومن هنا جاء اسمها بمسك الليل أو ملكة الليل أو الكولونيا، فهي تطلق أريجها في المساء عندما تتفتح أزهارها وتلك الرائحة شديدة القوة، وهي تنفع للمداخل والحدائق المنزلية.

أمّا زهرة الحب الغارديا فلها حكاية أخرى، عطرها صاحب رقة رفيعة يرافقه الشموخ والخجل وهي من يستحق أن تكون زهرة الحب وبجدارة، فهي تجمع الرفعة والرقة، القوة والدفء، الجمال والحياء. فهي كالحب تماماً حالها كحاله، هي زهرة النقاء لا تعرف إلا اللون الأبيض، والحب لا يعرف التلون والألوان. هذه النبتة الملائكية التي لا تشبه إلا نفسها ولا تقبل ألواناً غير لونها الخلّاب الهادئ كنفس مطمئنة، تلك هي الغارديا المبتهجة المبهجة بتكوين وعطر خاص بحسن وحضور لا تباه فيه، إنها زهرة السعادة الدائمة والسخاء والكرم.

ومن زهرة الحب إلى زهرة الشاعرية والرومانسية بفضل عبيرها الآسر للقلوب، زهرة الليلك الجميلة، هي زهرة الشباب أو التواضع أو الثقة بالنفس، زهرة الربيع وأسطورة الجمال العتيق، وجودها يرمز إلى الحساسية ودفء الربيع المعتدل. هي صورة من صور الجمال الأخاذة وهي تتألق مثل ابتسامة كونية، وأجمل ما فيها أنها لا تدرك جمالها، وفيرة الأزهار وفوح شذاها فائق. وجودها يرمز إلى جو الربيع المنعش ولونها البنفسجي المبهج يذكّرنا بقدوم الصيف، تزرع لتزهر أمام نوافذ الغرف حتى تبعث الطاقة الإيجابية بألوانها الجذابة ورائحتها الدافئة الفوّاحة.

ولأن دمشق هي سحر الشرق وجماله، فإن لوردة دمشق سحراً آخر، هي كما قال عنها شاعرنا الدمشقي نزار قباني: أنا وردتكم الدمشقية يا أهل الشام، فمن وجدني منكم فليضعني في أول مزهرية.

هي كنز وطني ومنجم حقيقي، وهي أبقى من النفط وأغلى من الذهب، هي الزهرة الوطنية للجمهورية العربية السورية وشعار وزارة السياحة، وقد وصل عبق عطرها الأخّاذ إلى جميع بقاع العالم. هي رمز من رموز بلادنا، ومعلم مهم لبلادنا، هي منجم طبيعي لا ينضب وهي سفيرة دمشق إلى مختلف أنحاء العالم ومصدر عز وفخر بشامة الدنيا دمشق.

ومن زهرة دمشق إلى زهرة قوس قزح، زهرة السوسن الدمشقي الذي يتربع على قمم جبل قاسيون، جميلة في ألوانها التي تتموج عن الأبيض، كما هي ألوان قوس قزح الجميلة الرائعة ومن شدة نقاء لون زهرتها البيضاء، أحد ألوانها، سمّوها زهرة الصباح. ولشدة جمال هذه الزهرة وتعدد ألوانها سمّوها أيضاً في الأساطير المشرقية برسولة الرب العلي، ووردت كإحدى الهدايا في الملاحم البابلية ووجدت رسوماتها على الكثير من القصور في تاريخنا المجيد، وهي رمز للحكمة والصدق والقوة.

ومن دمشق انطلقت «أبجدية الياسمين» فالياسمين نبت هناك ومحاسن الشام زُرعت بالياسمين، وأصبح هنالك شيء من التناغم على حفيف الأغصان والرائحة العطرة ليحمل منها النسيم العابر طيب الريح، ويسري به إلى مختلف الأماكن في المدينة. ففي دمشق عطّرت رائحة الياسمين المساءات والأزقة والأفق الواسع حتى عُرفت بمدينة الياسمين، وتلك هي ألحان سماوية وتاج

السعادة الغامر. وحين يُذكر البيت الدمشقي تتداعى إلى الذاكرة صورة رائعة لحيز مكاني يعبق بأريج الياسمين الدمشقي، تلك هي الوردة التي تميل مع النسمات في الاتجاهات كافة، وتنثر ريحها العطر الذي يطيل الأعمار ومن منا لا يحب قطف الورود واستنشاق عبيره!

هذه الزهرة البيضاء الجميلة المتناثرة كقطع الثلج، هو لون الياسمين يسحر الأبصار، ارتبطت بمدينة دمشق ارتباطاً وثيقاً وأصبحت رمزاً طبيعياً من رموزها، كما هو جبل قاسيون، ونهر بردى، والجامع الأموي. فتميزت بها وانتشرت في بيوتها القديمة وحدائقها المنزلية لتصبح عاصمةً للياسمين. وظلت علامة تميّز الهوية السورية، وينبوعاً للجمال، وأغنية تغنى بها الشعراء على مر العصور، فبدت كما وصفها الشاعر الأندلسي ابن الأبّار:

فتلك عروش الياسمين وزهره
كزهر النجوم وسط أفلاكها تبدو

ولن ننسى شاعرنا الدمشقي نزار قباني الذي تغنى بلون الياسمين قائلاً: «سيبقى الياسمين أبيض مهما خانته الفصول» وكذلك فإن مدينة الياسمين ستبقى مزهرة بيضاء ناصعة مهما اشتدت عليها الظروف.

حفظ الله ياسميننا وحفظ مدينة الياسمين.

وإضافة إلى ذلك فإنه يوجد في البيت الدمشقي الكثير والكثير من النباتات الدمشقية العريقة، فهنالك نبتة ليلة القدر التي سميت كذلك لأن النبات يضنّ بزهره ولا يكتمل تفتح أزهاره إلا بعد أسبوع أو أسبوعين، وذلك بليلة من ليالي فصل الربيع وتحت ضوء القمر، ونبات لسان الحماية الذي تمتد وتنتصب أوراقه شاقولياً بطول يصل إلى نحو المتر الواحد، وتفرز أوراقه سائلاً سكّرياً حلو المذاق، ويسمى النبات الذي تكون أزهاره متعاكسة الاتجاه أو كما يقال بالعامية (تدير ظهرها لبعضها) اسم الضرائر، والنبات الذي تشبه أوراقه أوراق نبات الخبيزة الذي نتناوله بعد الطهي يطلق عليه اسم الخبيزة بألوانها البيضاء والزهرية والخمرية، إضافة إلى نبات ورق الصالون الذي تتوزع أواني زراعته على جانبي مدخل الاستقبال المخصصة للضيوف والمناسبات وبأنحاء متفرقة من الليوان، فضلاً عن النباتات التي تزرع على أطراف البحرة ضمن البيت الدمشقي مثل الهوا الخشن والهوا الناعم والراخي شعره وحشيشة ألفي، عدا عن ذلك فإننا نراه أيضاً يزدهر بالنباتات الطبية والعطرية كالمليسة والميرمية والزعتر والبردقوش أو المردقوش والخطمية وغيرها من النباتات التي يعتمد عليها السوريون بالدرجة الأولى كنوع من (الزهورات الشتوية) التي تفيد في معالجة الرشح ونزلات البرد، وتدخل في الكثير من الخلطات الدوائية كنوع من طب الأعشاب أو الطب البديل.

وختاماً كانت رحلة ممتعة قضيناها في غابات من الزهر أحاطت دمشق وعبقت فيها شذى، كالفراشات الملونة كان تنقلنا من زهرة إلى زهرة قادنا عطر دمشق إليها، رقمّنا في دفاترنا أنواعاً وأنواعاً وطالت سلسلة الأرقام وما أجمله من تسلسل للورود ❖

د. غيداء محمد عيد

جامعة دمشق